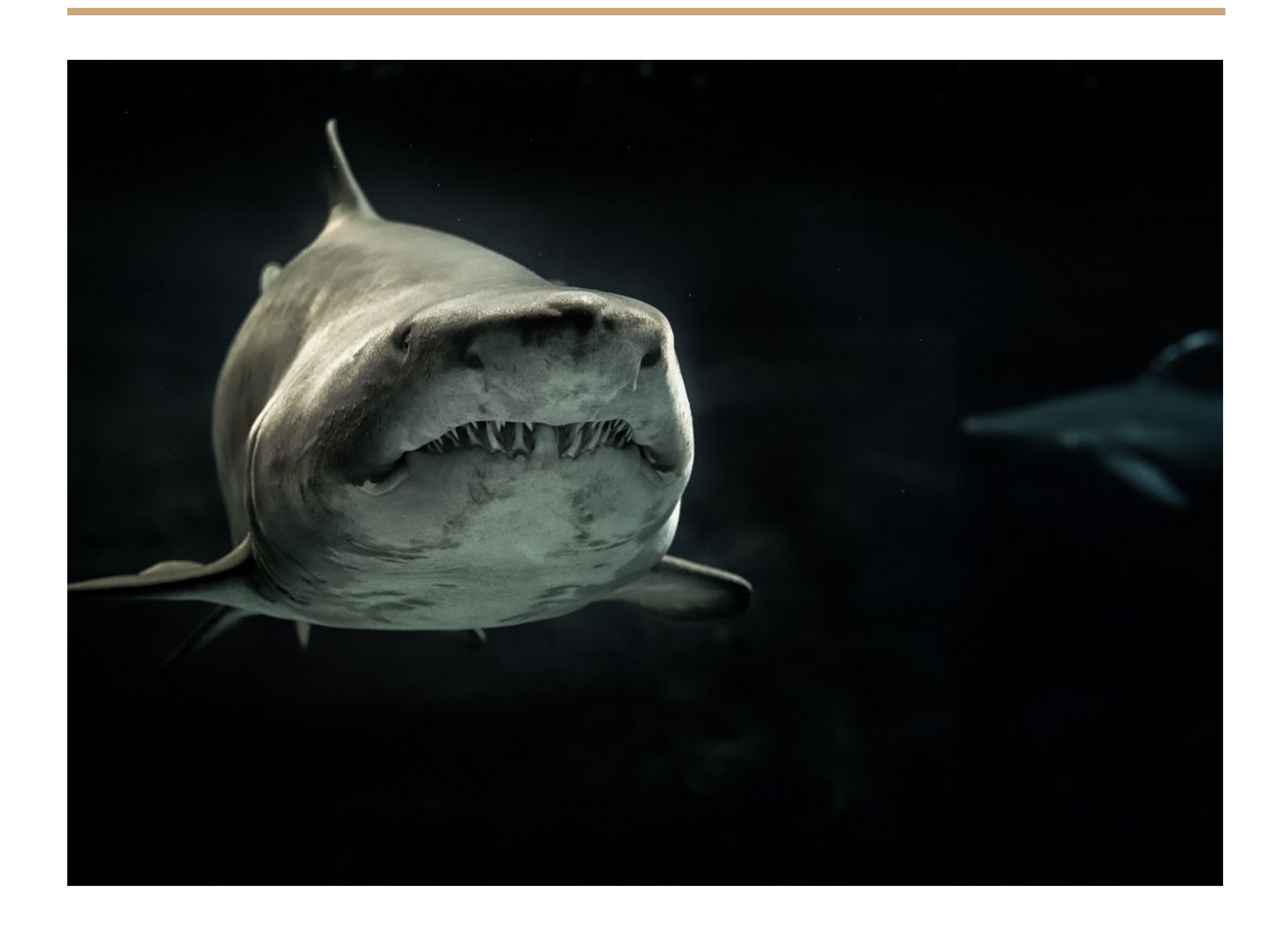
وقفة مع قوله سبحانه: ‹فَلَولا أَنَّهُ كانَ مِنَ المُسَبِّحينَ۝لَلَبِثَ في بَطنِهِ إِلى يَومِ يُبعَثونَ›

كتبه غريب الديار بتاريخ ال[1]جمعة ٠٩ جمادى الآخرة ١٤٤٢



1

تأمل معي قوله سبحانه:

< فَلَولا أَنَّهُ كانَ مِنَ المُسَبِّحينَ ۝ لَلَبِثَ في بَطنِهِ إِلى يَومِ يُبعَثونَ> [الصافات: ١٤٣-١٤٤]

إن الله يتكلم في هذه الآيتين عن رسوله يونس بن متى صلى الله عليه وسلم حيث قال ربنا عز وجل:

< وَإِنَّ يونُسَ لَمِنَ المُرسَلينَ ۝ إِذ أَبَقَ إِلَى الفُلكِ المَشحونِ ۝ فَساهَمَ فَكانَ مِنَ المُدحَضينَ ۝ فَالتَقَمَهُ الحوتُ وَهُوَ مُليمٌ ۝ فَلَولا أَنَّهُ كانَ مِنَ المُسَبِّحينَ ۝ لَلَبِثَ في بَطنِهِ إِلى يَومِ يُبعَثونَ ۝ فَنَبَذناهُ بِالعَراءِ وَهُوَ سَقيمٌ ۝ وَأَنبَتنا عَلَيهِ شَجَرَةً مِن يَقطينٍ ۝ وَأَرسَلناهُ إِلى مِائَةِ أَلفٍ أَو يَزيدونَ ۝ فَآمَنوا فَمَتَّعناهُم إِلى حينٍ >[الصافات: ١٣٩-١٤٨]

تأمل هذه الآيات ثم سل نفسك من هو يونس صلى الله عليه وسلم؟

وما الذي فعله يونس حتى يبتليه الله بأن يلتقمه الحوت, وكان سيبقى فيه إلى يوم القيامة؟

إن يونس صلى الله عليه وسلم من جملة المرسلين الذين فضلهم الله على العالمين, فلقد قال ربنا عنه:

< وَإِسماعيلَ وَاليَسَعَ وَيونُسَ وَلوطًا وَكُلًّا فَضَّلنا عَلَى العالَمينَ >[الأنعام: ٨٦]

فهو إذن رسول الله, اختاره الله عز وجل وفضله على العالمين

أما ما فعله يونس عليه السلام فقد ذكره ربنا في قوله:

< وَذَا النّونِ إِذ ذَهَبَ مُغاضِبًا فَظَنَّ أَن لَن نَقدِرَ عَلَيهِ فَنادى فِي الظُّلُماتِ أَن لا إِلهَ إِلّا أَنتَ سُبحانَكَ إِنّي كُنتُ مِنَ الظّالِمينَ >[الأنبياء: ٨٧]

فيونس عليه السلام بعد أن دعا قومه وأصروا على الكفر, ويئس منهم غضب عليهم وعلم أن العذاب سوف يصيبهم, فذهب عنهم.

أي أن يونس صلى الله عليه وسلم الذي فعل وكان السبب في أن يلتقمه الحوت هو ذهابه عن قومه قبل أن يأذن الله له.

لو تأملت حالة يونس لوجدت أنه قد أدى مهمته ودعا قومه وكذبوه حتى استحقوا وعيد الله, وبالفعل بدأت بوادر العذاب تظهر فخرجوا يتضرعون إلى الله عز وجل ونفعهم ذلك كما قال ربنا حاكيا عنهم:

< فَلَولا كانَت قَريَةٌ آمَنَت فَنَفَعَها إيمانُها إِلّا قَومَ يونُسَ لَمّا آمَنوا كَشَفنا عَنهُم عَذابَ الخِزيِ فِي الحَياةِ الدُّنيا وَمَتَّعناهُم إِلى حينٍ > [يونس: ٩٨]

و لوجدت أن يونس لم يفعل سوى أنه ذهب عن قومه غاضبا عليهم قبل أن يأذن الله ومع ذلك وقع في هذا البلاء الشديد يقذف في البحر، ويلتقمه الحوت وهو من هو !

إذا كان هذا فعل الله مع رسول كريم فضله على العالمين بسبب أنه خرج قبل أن يؤذن له، فكيف سيكون فعله بي أنا وبك أنت ونحن نعصي الله دوما ولا حول ولا قوة إلا بالله.

تأمل قصة يونس وسوف تعلم أننا على خطر كبير فلقد صرنا نأمن مكر الله فعلا، نقع في المعاصي والعياذ بالله ولا نلقي لها بالا، فقد تعودنا عليها من أنفسنا ومن محيطنا فصار قول الحق سبحانه:

< كَلّا بَل رانَ عَلى قُلوبِهِم ما كانوا يَكسِبونَ >[المطففين: ١٤]

وصفا دقيقا لحالة قلوبنا مع المعاصي.

إننا للأسف وهذه حالنا من أمن مكر الله، خاسرون فقد قال ربنا في وصف من أمن مكره:

< أَفَأَمِنَ أَهلُ القُرى أَن يَأتِيَهُم بَأسُنا بَياتًا وَهُم نائِمونَ أَوَأَمِنَ أَهلُ القُرى أَن يَأتِيَهُم بَأسُنا ضُحًى وَهُم يَلعَبونَ أَفَأَمِنوا مَكرَ اللَّهِ فَلا يَأمَنُ مَكرَ اللَّهِ إِلَّا القَومُ الخاسِرونَ >[الأعراف: ٩٧-٩٩]

إننا وصلنا لهذه الحال بسبب الإرجاء الذي ورثناه عبر العصور، فلقد ورثنا أن المعصية في الإسلام وإن كانت سيئة إلا أنها لا تمنع من دخول الجنة وصاحبها سيدخل الجنة بعد أن يقضي فترة معينة في النار، وهذا بالضبط ما قاله أهل الكتاب قبلنا :

< ذلِكَ بِأَنَّهُم قالوا لَن تَمَسَّنَا النّارُ إِلّا أَيّامًا مَعدوداتٍ وَغَرَّهُم في دينِهِم ما كانوا يَفتَرونَ > [آل عمران: ٢٤]

إن السبب في هذه المعتقدات الفاسدة هو الإرجاء كما أسلفت وتحريف أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم التي تحدثت عن خروج بعض المؤمنين من النار، فهذه الأحاديث لا تتحدث عن الكافرين الذين يصرون على معصية الله، وإنما تتحدث عن مؤمنين صالحين وقعوا في ذنوب وأراد الله أن يطهرهم منها والشاهد على هذا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم:

حتى إذا أراد الله رحمة من أراد من أهل النار، أمر الله الملائكة أن يخرجوا من كان يعبد الله، فيخرجونهم ويعرفونهم بآثار السجود، وحرم الله على النار أن تاكل أثر السجود، فيخرجون من

النار، فكل ابن آدم تاكله النار إلا أثر السجود، فيخرجون من النار قد امتحشوا، فيصب عليهم ماء الحياة فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل

أخرجه الدارمي (2967). والبخاري 1/204 (806) و8/146 (6573). ومسلم 1/114 (371)

فالذي يخرج من النار شخص نعده اليوم من العباد الذين يشار إليهم بالبنان يصلي حتى يؤثر فيه السجود، ومع ذلك يوم القيامة سيلقى في النار حتى يتطهر من ذنوبه التي ارتكبها في الدنيا.

وليس ذلك الكافر المستهتر الذي يعصي الله ويقول سوف أخرج من النار ما لم أستحل .

عند العودة إلى الوحي قرآنا وسنة سوف ندرك عظمة المعصية وخطورتها، وأن التوبة منها لا تعني لزاما أن الله يتوب فورا على العبد، فقد يتوب عليه بعد أن يبتليه كما حدث مع الثلاثة الذين خلفوا، فهم قد تابوا، وصدقوا في توبتهم، ومع ذلك لم ينزل الله توبته عليهم إلا بعد أن ضاقت عليهم الأرض بما رحبت :

< وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذينَ خُلِّفوا حَتّى إِذا ضاقَت عَلَيهِمُ الأَرضُ بِما رَحُبَت وَضاقَت عَلَيهِم أَنفُسُهُم وَظَنّوا أَن لا مَلجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلّا إِلَيهِ ثُمَّ تابَ عَلَيهِم لِيَتوبوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوّابُ الرَّحيمُ >[التوبة: ١١٨]

فالتوبة ليست فورية لزما كما يصور لنا الشيطان، أو أنه يكفي أن نقول تبنا إلى الله ليتوب علينا .

أيها القارئ دعني أصارح نفسي واصارحك بحقيقة وهي أنني وانت لسنا بأكرم عند الله من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولسنا أحب إلى الله عز وجل من كعب بن رضي الله عنه وصاحبيه.

لذلك إن كان الله لم ينزل توبته عليهم إلا بعد أن ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، فاعلم أننا نحتاج الكثير من الصدق والصبر حتى يتقبل الله توبتنا ويتجاوز عنا، فهو عادل سبحانه يجازي كل أحد بما يستحق.

أيها القارئ لا أقول هذا لنفسي ولك لكي نيأس من رحمة الله، ولكن حتى أعلم وتعلم أن أمر معصية الله أمر جلل ليس بالسهل ولا اليسير، يسبب الحزن الدائم للمؤمنين الذي لا ينتهي إلا بعد دخول الجنة:

< وَقالُوا الحَمدُ لِلَّهِ الَّذي أَذهَبَ عَنَّا الحَزَنَ إِنَّ رَبَّنا لَغَفورٌ شَكورٌ >[فاطر: ٣٤]

لذلك لنحزن على على معاصينا، ولنبكي على خطايانا فإننا لا نعلم متى يتقبل الله توبتنا.